# جوهر السياسة في الإسلام

## الإنسانية ووحدة الوجود الإنساني - الشريعة والإنسان في المجتمع

# الإنسانية ووحدة الوجود الإنسانى

البشر سواسية، والبشر إخوة، يحملون مسئولية حياتهم وسلوكهم قبل بعضهم بعضاً وقبل الخالق، مسئولية يتحدد فى إطارها الحق الواجب لكل فرد فى الوجود، وعلى كل فرد فى الوجود ويدرك الفرد من خلالها صلته بالوجود ومكانه منه إدراكاً يحس معه الإنسان وحدة الإنسانية ممثلةً فى وحدة الوجود الإنسانى، فشريعة الإسلام قد جبت ما بين المسلمين من فروق قومية أو عنصرية وقضت على كل حاجز يمكن أن يفرق الناس إلى طبقات. والمسلمون أمة واحدة والدين عند الله هو الإسلام، ولا يعنى هذا أن الإسلام ينكر ما قبله من الأديان فإن ذلك يتناقض وتصديقه بمن سبق من الأنبياء والرسل وما بعثوا به من رسالات، فقد جاء الإسلام مصدقاً بإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم ممن اصطفاهم الله لرسالته ففى سورة البقرة: (قولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيّون من ربهم، لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا، وإن تولّوا فإنما هم فى شقاق، فسيكفيكهم الله وهوالسميع العليم[1]) وفى آل عمران: (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[2]).

ولم ينسخ الإسلام ما قبله ولم ينكره بل جاء مصدقاً به وجعل الإيمان به شرطاً لاكتمال إسلام المسلم وزاد على ذلك بأنه لم يأت بجديد على ما جاء به الأنبياء من قبل كما فى قوله تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً، والذى أوحينا إليك، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[3]) فتمثل بذلك وحدة الوجود الإنسانى ووحدة العقيدة ووحدة الفكر من أزل الوجود إلى ابده، سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا، فهو الدين الإلهى ولا دين غيره، دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وموسى وعيسى، وهو دين محمد وما كان محمد إلّا خاتم الأنبياء وما كانت رسالته إلّا ختام الرسالات جميعاً ففى آل عمران: (إنّ الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت

---

(١) سورة البقرة: ١٣٦، ١٣٧.

(٢) سورة آل عمران: ٨٤.

(٣) سورة الشورى: ١٣.

وجهى لله ومن اتّبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد[٤]».

فالإسلام هو عقيدة السماء منذ بعث الأنبياء إلى البشر، وهو رسالة الله إلى الناس كافة على لسان أنبيائه منذ نوح حتى محمد عليهم السلام أجمعين، وجاء كل نبى مصدقاً لمن قبله من الأنبياء والرسل، ففى سورَة المائدة :(إنّا أنزلنا التوراة فيها هدى ونورٌ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيّون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون[٥]). وفى لوقا : «وقال لهم هذا هو الكلام الذى كلمتكم به وأنا بعد معكم أنه لابد أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى فى ناموس موسى والأنبياء والمزامير[٦]». وفى أعمال الرسل : «أيها الرجال الإخوة بنى جنس إبراهيم والذين بينكم يتقون الله إليكم أرسلت هذا الخلاص لأن المساكين فى أورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا، وأقوال الأنبياء التى تقرأ كل سبت تمحوها إذا حكموا عليه[٧]» .

فالمسيح عيسى ابن مريم قد بعث إلى بنى إسرائيل ثم إلى الناس جميعًا لا فرق بين يهودى وأممى ففى لوقا : «وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئاً من أورشليم[٨]» كما بعث محمد إلى قومه وعشيرته أوّلاً ليكون إلى الناس كافة من بعد وليصبح الإسلام دين البشرية جميعاً ففى سورة الشعراء : (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتّبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنّى برىء مما تعملون[٩]).

وليس فى التوراة ولا فى الإنجيل ما ينكر أن الإسلام هو الدين الذى بعث به الأنبياء جميعاً فالإسرائيليون نسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب وقد دعى بإسرائيل أى المجاهد فى سبيل الله تكريماً له، واليهود نسبة إلى دولة يهودا، وكان الفرس أوّل من أطلقها على الإسرائيليين حين نسبوهم إلى بلدهم فهى لا تعنى ديناً وإن غدت تعنى كل من يدين بالشريعة الموسوية، والعبرية من عبرى، ولا تعنى كاليهودية ديناً كما لا تعنى جنسيةً معينة، وكان الكنعانيون أوّل من أطلقها على إبراهيم وذريته.

---

(٤) سورة آل عمران : ١٩، ٢٠.
(٥) سورة المائدة : ٤٤.
(٦) لوقا ٤٤ : ٤٧.
(٧) أعمال الرسل ١٢ : ٢٦- ٢٧.
(٨) لوقا ٢٤ : ٤٧.
(٩) الشعراء: ٢١٤- ٢١٦.

والمسيحية كذلك نسبة إلى المسيح، والنصرانية نسبة إلى الناصرة حيث ينسب السيد المسيح فيقال الناصرى، وقد وردت فى القرآن صفة لأتباع المسيح وشاعت فى اللغة العربية على هذا المعنى، ويشيع إصطلاح مسيحى ومسيحية فى اللغات الأوربية، ولا تعرف هذه اللغات اصطلاح نصرانى ونصرانية أما القبطية والأقباط فتطلق على من يدينون بالمسيحية فى مصر، وهم فى الأصل أتباع المذهب اليعقوبى وإن تجاوزتهم إلى غيرهم من أتباع المذاهب المسيحية الأخرى فى مصر جوازاً على أساس أن النسبة لمصر أو «اجبتوس» كما تعرف باليونانية وليست للمذهب، وعلى هذا القياس نسب الأوربيون الإسلام إلى محمد فقالوا المحمدية وقالوا عن المسلمين المحمديين، ولم يرد فى التوراة مسمى للعقيدة اليهودية كما لم يأت الإنجيل بمسمى للمسيحية أما القرآن فقد جاء النص صريحاً على الإسلام وأنه الدين الذى بعث به محمد وبعث به الأنبياء جميعاً.

ووحدة العقيدة الدينية فى الإسلام برهان على وحدة العقل ووحدة الوجود الإنسانى لذلك كان الإسلام دين العالمين ودين الناس كافة وكان محمد خاتم الأنبياء وكانت الدعوة إلى إدراك الله عن طريق العقل تأكيداً لكلية العقل فهو التعبير الأسمى عن طبيعته جلّ شأنه ما دامت قوانين العقل واحدةً عند الجميع تستمد وحدتها من وحدة الكون واتساقه فالإله الواحد معناه كون واحد وقانون واحد ووجود إنسانى واحد .

وتعنى وحدة الوجود الإنسانى مجتمعاً إنسانياً واحداً تسوده المساواة والعدالة كما تسوده وحدة الضمير ووحدة الأخلاق، ولا يكتمل هذا المعنى فى الأديان السابقة كما يكتمل فى الإسلام فقد جاءت اليهودية وهى تبشر برب البر والصلاح وبركة الرسالة فى ذرية إبراهيم عليه السلام وبالاختيار للأرض المباركة التى أهلّت منها رسالات السماء ما بين بيت المقدس وبيت إبراهيم فى أم القرى أو مكة المكرمة ثم لمن آمن برسالة رب العالمين، وإن ادعى الإسرائيليون أن الرسالة لهم وحدهم دون الناس أجمعين فهم الأثيرون بالإيمان ، وأن البركة فى إسرائيل وحده وليست للأنبياء الذين خصّهم الله بها من نسل إبراهيم والاختيار لهم وليست للأرض المباركة موطن رسالات السماء فقالوا إنهم شعب الله المختار وإن ما عداهم فى مرتبة أدنى فدعوهم بالجوييم أو الأمميين، فكانت تلك العنصرية الجائحة التى مزقت الفكر اليهودى على مدى التاريخ وكان هذا التعصب الدينى الذى أنكروا به على غيرهم اعتناق اليهودية فلم يبشروا بها كما أنكروا رسالة عيسى ومحمد إلّا أن المسيحية أنكرت دعوى الإسرائيليين كما جبّها الإسلام حين قضى على كل أثر للتميز والأستعلاء وقال بعموم الرسالة، فقد جاء المسيح عليه السلام مبشراً بملكوت السماء وأنه يسع من دخل فيه ففى

رومية : « ادعو الذى ليس شعبى شعبى والتى ليست محبوبة محبوبة[١٠] » وفى متى :« فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس[١١] وفى القرآن الكريم : ( إنّ هذه أمتكم أمةً واحدةً وأنا ربكم فاعبدون[١٢] ) وفيه : (ياأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير[١٣]).

وفيه أيضاً : (وما أرسلناك إلّا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون[١٤]).

ومن الحديث الشريف : « بعثت إلى الناس كافة » ومنه « أنا رسول من أدركت حياً ومن ولد بعدى ».

وعن أبى هريرة : « قيل : يارسول الله من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم فقالوا : ليس عن هذا نسألك فقال : فعن معادن العرب تسألون، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، وأن كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو أنه ابن زنجية لغية، وإن العاصى الكافر محطوط الدرجة ولو أنه ابن نبيين » وقال عليه السلام فى حجة الوداع : « ياأيها الناس : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب، ليس لعربى على عجمى فضل إلّا بالتقوى ».

وتؤكد وحدة العقيدة السماوية ودعوى عموم الرسالة فى الإسلام وحدة الوجود الإنسانى وتتمثل فيما قرره الإسلام من مبدأى المساواة والإخاء فقد جبّ مبدأ المساواة أى تمايز يمكن أن يدعيه الإنسان على الإنسان إلّا فى التقوى أما الإخاء فهو أكثر اتصالاً بما تعنيه وحدة الوجود الإنسانى فالإخاء الإسلامى لا يقف بمدلوله عند الحدود المألوفة للمعنى الدارج من حيث التكافل والتعاون بين الناس على السواء ولكنه يتخطاه إلى المعنى الرحب الفسيح فى الأخوّة البشرية على المستوى الإنسانى العام وهو ما يقتضيه معنى عموم الرسالة وأن الدين عند الله الإسلام، فإذا كان الإسلام قد أنكر العنصرية وقضى على التمايز بين معتنقيه ومنح غير المسلمين من الحقوق ما للمسلمين وكفل لهم الرعاية والبر ما للمسلمين فقد وضع الأساس القويم لمجتمع إنسانى عالمى تنمحى فيه القومية والشعوبية وتزول فيه الفوارق بين الأمم والأجناس زوالها بين الأفراد والمجتمعات.

---

(١٠) رومية. ٩ : ٢١.
(١١) متى. ٢٨ : ١٩.
(١٢) الأنبياء : ٩٢.
(١٣) الحجرات : ١٣.
(١٤) سبأ : ٢٨.

## الشريعة والإنسان والمجتمع :

فإذا كانت السياسة – كما قلنا – هى إدارة شئون الجماعة الإنسانية فإن أى تنظيم لشئون الجماعة الإنسانية هو من قبيل السياسة، وإذا كانت الجماعة الإنسانية حين تضع نظاماً معيناً لشئونها تستقيه من واقعها الذى تعيشه ومن التقاليد الاجتماعية والقيم الأخلاقية التى تحكمها وتدين بها ولا تجد ما هو أفضل منها لحياتها فإنها تتحوّل إلى جماعة سياسية بمعنى أنها قد أصبحت ذات نظام ثابت يحكمها بين الجماعات الإنسانية المماثلة لها أو المختلفة عنها، ويقال حينذاك إن جوهر سياستها هوالعمل بالتقاليد والأخلاقيات التى تدين بها أو أن الروح التى تسيطر على سياستها هى روح التقاليد والأخلاقيات التى تؤمن بها كمثل أعلى للسلوك الإنسانى والعلاقات الاجتماعيةويكون من بعض مهام السياسة أو النظام السياسى أن يؤمن تلك التقاليد ويصون هذه الأخلاقيات .

وقد جاء الإسلام بشريعة شملت الوجود الإنسانى كله وفيها من المرونة والحكمة ما يساير الوجود الإنسانى فى كل زمان ومكان وإن لم يضع نظاماً للدولة ولم يأخذ بنظرية للحكم، إلّا أن الإدارة التى قامت عليها الجماعة الإسلامية الأولى على عهد النبى وفى عهود الخلفاء الراشدين ، ثم ما جاءت به الشريعة من مبادئ السلوك وقواعد المعاملات والعلاقات الاجتماعية وما كان من واقع هذه الجماعة الإسلامية الأولى فى الحرب والسلام يصور لنا جوهر الروح السياسية فى الإسلام ويمدنا بالأصول والمبادئ التى يمكن أن تقوم عليها نظرية سياسية فى الإسلام تكون أساسًا لدولة إسلامية ولا يعنينا فى هذا شكل الدولة الإسلامية التى قامت فإنها لاتمثل روح الإسلام السياسية إلّا فى فترة لم تطل، ولعل الدولة الإسلامية حينذاك وفى عهد الشيخين الأولين لم تكن قد استكملت شكلها السياسى فحين أخذت الجماعه الإسلامية تنمو وتمتدّ إلى الحد الذى دعا الخليفة عمر إلى وضع أسس السياسة العامة للحكم الإسلامى فى الولايات بما تقتضيه روح الإسلام السمحة اغتالت الفتنة عهد الخليفتين الأخيرين عثمان وعلى وقفز بنو أمية إلى مركز السلطة فحولوا الحكم إلى أوتوقراطية بغيضة «جمعت – كما يقول سيد أمير على – كل مساوئ الديمقراطية والأوتوقراطية دون محاسنها» فأصبح الخليفة يختار ولى عهده وخليفته ويأخذ له البيعة بنفسه، وغدت الخلافة ملكاً عضوضاً لا يحول دون استبداده غير صراحة الرأى المعروفة عند العرب وحرص المجتمع على نقاء العقيدة حتى أصبحت بما لها من قداسة فى نفوس الناس حرماً لا يمسّه الخليفة ولا يقربه بتعديل، وكان يكفى أن يلوذ العربى بحمى الشريعة ويذكر للخليفة قدرة الله عليه فلا يجد خلاصاً إلّا بالاحتكام إلى الشريعة فى مجلسه العام وإن

كانت صراحة الرأى التى شهدها المجتمع الإسلامى فى عهد الشيخين الأولين قد ذوت إلّا من إثارة ضئيلة لا يخشى منها على الحكم أو على جاه الحاكم بل لعلها كانت من باب ادعاء العدالة والمساواة دون الإيمان بها، أو استجابةً لطبيعة البداوة فى نفوس العرب.

لذلك فإننا نستقى روح الإسلام السياسية من جوهر العقيدة ذاتها ومن سنن النبى الكريم وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده حرصاً على هذا الجوهر وعلى ذلك السنن الصالح.

أما العقيدة فقد انتظمتها شريعة تعلو إلى درجة التقنين وسنة مأثورة تكتمل بها الشريعة، وبقدر ما تتصف به الشريعة من كمال التقنين حتى لتتناول التفصيلات الدقيقة من شئون الأسرة والميراث والمعاملات الإقتصادية والعلاقات الاجتماعية فإنها لا تأتى بأية تفاصيل عن نظام الحكم ولا يؤثر عن النبى الكريم أنه استن شيئاً من هذا القبيل أو أوصى بما يكون عليه نظام الدولة من بعده ولكن الشريعة تتضمن مبادئ عامةً تصلح أساساً لنظرية سياسية فى الإسلام ولقيام دولة إسلامية خالصة، وكانت قيادة النبى للجماعة الإسلامية الأولى فى المدينة ثم فى الجزيرة العربية سنّةً أثيرة لكل من قام على أمور هذه الجماعة من بعده فإنه ليسوس الأمور بروح الإسلام ويواجه ما يجد بأصالة القائد وقدرة الزعيم.

وقد قام المجتمع الإسلامى متكاملاً منذ البداية وعلى نظام دنيوى خالص لم يكن وحياً من عند الله ولم تنص عليه قاعدة دينية حتى لا تكون إلزاماً للناس من بعده أو أساساً لقيام دولة دينية يجمد فيها نظام الحكم أو دستور الدولة أو تقف بالفكر عند حدود ملزمة تقعد بالجامدين عن التطور وفصل بذلك بين الدين والدولة منذ البداية.

ولكن الإسلام وضع من القواعد ما تستقيم به الحياة على أى نمط سوىٍّ لا يبغى من ذلك غير خير الحياة، وخير الإنسان، وأوّل ما نستشفه من تلك القواعد صفاء جوهرها وصدقه وأنها تبغى توقير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية وأنها أوفت بهما على الذروة من جلال الحق وتقديس العدالة.

ومن هاتين البغيتين: توقير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية، نستطيع أن نتبين جوهر النظرية السياسية فى الإسلام، ونستطيع أن نلمس الشكل الذى يمكن أن تقوم عليه الدولة الإسلامية.

وقد قامت الدولة الإسلامية فى البداية على سنن واضح من شريعة الإسلام وأحكامه، فإذا كان ما يهتدى به فى أمر جديد فمردّه إلى روح الإسلام، ولم تترك الشريعة ولا السنّة من أمور الحياة الدنيا فضلاً عن الحياة الآخرة ما يعجم على الإنسان، فإن أغفلتا التفصيل فى بعضها فقد وضعتا المبادئ والأسس لكل شى وحددتاها تحديداً واضحاً فى السلم والحرب

وفى شكل الأمة وطبيعتها ونظامها الإجتماعى وعلاقتها بغيرها من الأمم وعلاقة الفرد فيها بالفرد وبالمجتمع، وواجب الفرد على المجتمع، وواجب المجتمع على الفرد، وكل ما تبغيانه للحياة الدنيا إقامة مجتمع يشمل البشرية جميعاً يوفر الحياة ويعلى من كرامة الإنسان، وهى ما نصل منها إلى تحديد جوهر السياسة والحكم فى الإسلام، فالإسلام وهى الكلمة الأولى التى تطالعنا بها الدعوة تعنى السلام وفى أصل معناها - كما يقول سيد أمير على فى روح الإسلام - «الطمأنينة والسكون وأداء الواجب وقضاء الدين والصلح، وبمعناها المجازى تعنى انقياد العبد لربه، والإذعان له، والاسم المشتق من هذه الكلمة يفيد معنى السلام والتحية والسلام والنجاة».

وليس هناك ما يؤدى إلى توفير الحياة أكثر من السلام، فالسلام نقيض الحرب ونقيض العنف، ونقيض الألم، وهو صنو الرحمة والتواصل والطمأنينة، فإذا كان الإسلام قد شرع الحرب فدفاعاً عن النفس وذوداً عن العقيدة، ففى سورة البقرة: ( وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين[١٥] ) وفيها ( فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله[١٦] ) وفى سورة الأنفال: ( وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله[١٧] ) وفى سورة النساء: ( فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً[١٨] ) وفى سورة النحل: ( وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين[١٩] ) فشرعة الحرب فى الإسلام هى شرعة الحرب الدفاعية، لا تقر العدوان وتنهى عنه، وإذ تنهى عنه فلأن الحياة البشرية فى الإسلام مصونة؛ ولأن الدم البشرى لا يسفك إلا لغاية أسمى وفضل أجل، أما أن يسفك بغياً وعدواناً فهو الإثم ما بعده إثم، إثم حرمه الإسلام ونهى عن ارتكابه أشدّ النهى يجزى صاحبه بما اقترف بمثل ما اقترف، فالنهى حاسم جازم فى قوله تعالى: ( ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلّا بالحق[٢٠] ) والجزاء واضح فى بيانه سبحانه وتعالى: ( ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب[٢١] ) وأبان جلّ وعلا أوجه القصاص فى القتلى فقال تعالى: ( يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى، الحر بالحر، والعبد بالعبد، والأنثى

---

(١٥) البقرة: ١٩٠.
(١٦) البقرة: ١٩٤.
(١٧) الأنفال: ٦١.
(١٨) النساء: ٩٠.
(١٩) النحل: ١٢٦.
(٢٠) الأنعام: ١٥١.
(٢١) البقرة: ١٧٩.

بالأنثى، فمن عفى له من أخيه شيء فاتّباع بالمعروف، وأداء إليه بإحسان، ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليم[٢٢] ). كما أبان عن القصاص فى الأعضاء وأنه شريعة النبيين فقال سبحانه وتعالى: ( وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن، والجروح قصاص، فمن تصدّق به فهو كفارةٌ له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون[٢٣] ).

والقتل فى شرعة الإسلام جريمة ضدّ المجتمع بأسره فمن قتل نفساً فكمن قتل الأنفس جميعاً، وأصبح على الجماعة الإنسانية أن تقتص للقتيل وتوقع العقاب على القاتل، ففى قوله تعالى: (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً[٢٤]) وما من دم يذهب هدراً فى الإسلام فإذا قتل قتيل ولم يعرف قاتله جيء إلى المكان الذى قتل فى زمامه، واختير من أهله خمسون رجلاً ممن لهم بالمكان وأحواله خبرة ومعرفة ليدلوا على القاتل أو يقسموا أنهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلاً فإذا أقسموا وجبت الدية على أصحاب المكان لأنهم مسئولون عما يقع فى زمامهم من جرائم، والدية واجبة فى القتل الخطأ على القاتل فإن عجز فعلى أسرته فإن عجزت فعلى بيت المال.

والقصاص أدعى إلى توقير الحياة البشرية لأنه أصون للحياة البشرية وفيه يتساوى الناس جميعاً الكبير والصغير والغنى والفقير والقوى والضعيف والأمير والصعلوك، فمما يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام قوله: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، كما أنه أصون للنظام الاجتماعى فحيث تجب الرحمة فهى الرحمة التى تعم ولا تخص، ومن قوله عليه الصلاة والسلام: «من لا يرحم لا يرحم» ومن الرحمة بالمجتمع أن تقف غرائز الشر فلا تتجاوز عقالها إلى الإضرار بالنفس أو بالمجتمع، وليس أردع للشر من القصاص فإنه أصون للمجتمع وحقوقه ولحرية الفرد وواجباته، فالنزعات الشريرة إذا انطلقت من عقالها دون رادع أصبحت دماراً على المجتمع الذى تسوده وخطراً على الحرية والعدالة بما ركب فى الإنسان من أنانية وأثرة تدفعانه إلى الاغتصاب والعدوان، والعقوبات الزاجرة وحدها هى التى تقر موازين العدالة وتقمع نزعات الشر والعدوان من أن تنال الحياة بضر أو حقوق الفرد بنقص أو نظام المجتمع بخلل وهى التى تكفل للحياة الاجتماعية الأمن والاستقرار والسلامة.

---

(٢٢) البقرة: ١٧٨.
(٢٣) المائدة: ٤٥.
(٢٤) المائدة: ٣٢.

لذا أقامت الشريعة حدوداً زاجرةً على بعض الجرائم التى تهدد البناء الاجتماعى وخصتها وحدها بعقوبات معينة وهى جرائم السرقة والزنا والقذف وقطع الطريق، فعقوبة السرقة قطع اليد كما فى قوله تعالى: (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله، والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه، وأصلح فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم[٢٥]) وعقوبة الزنا بنص القرآن مائة جلدة، ففى قوله تعالى: (الزانية والزانى فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[٢٦]) وأما قذف المحصنات والمحصنين فعقابه ثمانون جلدة، وفى قوله تعالى: (والذين يرمون المحصنات، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةً، ولا تقبلوا لهم شهادةً أبداً، وأولئك هم الفاسقون . إلّا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإنّ الله غفور رحيم[٢٧]) وأخطر هذه الجرائم وأشدها عقوبة: قطع الطريق والإفساد فى الأرض وعقوبتها القتل والصلب أو القتل فقط أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف، كما فى قولة تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . إلّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم، فاعلموا أن الله غفور رحيم[٢٨]).

وهذه العقوبات هى وحدها التى قدرها القرآن، وأما غيرها من العقوبات الإسلامية فمما قدرته السنّة كعقوبة الخمر أو ما لم يدخل فى تقديرها وتركت لتقدير ولى الأمر وتسمى تعزيراً، ونرى أن الجرائم التى تهدد البناء الاجتماعى للأمة وتجور على حقوق الفرد وتهدد أمنه وحقه فى التملك هى التى قدر القرآن زواجرها من العقوبات الرادعة حفاظاً على الكليات الخمس التى عنى الإسلام بالمحافظة عليها وهى النفس والدين والمال والنسل والعقل وهى جميعاً مما يتصل بتوقير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية وجعل فيها شفاءً للمجنى عليه من شر الترة وحنق المظلوم وتعويضاً عادلاً عما يقع عليه من أذى وردعاً لذوى النفوس الشريرة من الجهر بالمعصية والإيغال فيها.

ومما يعلى من شأن الحياة وكرامة البشر أن تقوم السياسة على أسس ثابتة من العلاقة بين الحاكم والمحكوم وهى أسس ترقى إلى درجة الإلزام وإن لم يشر الإسلام إلى نوع التنظيم

---

(٢٥) المائدة: ٣٨- ٣٩.
(٢٦) النور: ٢.
(٢٧) النور: ٤- ٥.
(٢٨) المائدة: ٣٣- ٣٤.

السياسى أو الإدارى الذى تقوم عليه، فلأنه لم يشأ أن يلزم الناس بنظام ثابت لا تجوز مخالفته حتى لا يكون حجةً من بعد، فالنظم تتغير وفقاً للزمان والمكان أما الروح التى تحكم هذه النظم فهى الباقية وهى الملزمة، وهى الروح التى تقوم عليها الفلسفات السياسية فى كل العصور على اختلاف تنظيماتها إذ لا يختلف عليها إنسان لأنها تنشد خير الإنسان وصالح الجماعة الإنسانية .

وتتمثل روح الإسلام السياسية فى العدل والشورى والحرية فالعدل أساس الجزاء فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم والشورى سياج العدل فى الجماعة السياسية وضمان العمل لصالح الجماعة، وهى أساس الديمقراطية فى المصطلح السياسى، والحرية هى حرية الرأى وحرية العقيدة وتحرر العقل من الوهم والخرافة.

وقد أمر الله بالعدل وإلزام الناس به حكاماً ومحكومين ففى قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون[٢٩]) كما أمر بالشورى وألزم بها الجماعةالسياسية أو أية جماعة تقوم على عمل وتضطلع به فلا يستأثر فرد دونها برأى أو يستبدّ فيها بعمل، ففى قوله جلّ شأنه: ( وأمرهم شورى بينهم[٣٠]) وقوله سبحانه وتعالى: (وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله[٣١]).

وأما الحرية فهى شريعة الإسلام الكبرى، وهى حرية العقل وحرية الضمير وحرية الإرادة، فأما حرية العقل فقد جاء الإسلام وهو يخاطب العقل ويحث الناس على التأمل والتفكير ولم يكن للنبى من معجزة كمعجزات من سبق من الأنبياء إلّا مخاطبته العقل والمنطق، ولم ينتشر الإسلام على مشافر السيوف وسلطان الدولة، على خلاف ما يذهب إليه مؤرخو الغرب من اعتبار الفتوح الإسلامية أساساً وسبباً فى نشر العقيدة، فقد انتشر الإسلام أكثر ما انتشر على يد التجار والنازحين العرب وفى بقاع لم يصل إليها غزاة المسلمين ولم يكن من هؤلاء التجار والنازحين العرب دعاة للإسلام كدعاة المسيحية، ولكنهم حيثما أقاموا كانت عقيدتهم تجذب إليها غيرهم، وإن ردّ « توماس أرنولد» هذه الجاذبية إلى حماس المسلم الفرد فى الدعوة لدينه، وإن كنا نرى حتى باستنادنا إلى ما ذكره توماس أرنولد من وقائع فى هذا الصدد، أن القدوة والجاذبية ثم تمسك المسلم بعقيدته كانت وحدها دون الدعوة المباشرة سبباً فى اعتناق الإسلام أو التحول عن الأديان الأخرى إليه، فبساطة

---

(٢٩) النحل : ٩٠.

(٣٠) الشورى : ٣٨.

(٣١) آل عمران ١٥٩.

العقيدة ثم اتفاقها مع العقل والمنطق هما اللذان يجذبان الناس إليها، ويؤيد «مونتيه» هذا الرأى – وقد استشهد به توماس أرنولد – فيقول: «الإسلام فى جوهره دين عقلى بكلّ ما تحمل هذه الكلمة من معناها اللفظى والتاريخى.. وكل ما لدينا من شواهد يدلّ على أنه عقيدة قامت على أساس العقل والمنطق».

وأما حرية الضمير فإن الإسلام لم يضع قيوداً على الضمير الإنسانى تحول بينه وبين التقدم والانطلاق، فصلة المرء بخالقه صله مباشرة لا تحكمها وساطة أو طقوس كهنوتية وهى صلة يحكمها الضمير ويحكمها قانون الأخلاق، وهو قانون مرن يوائم النفس الإنسانية ويساير التقدم فى مختلف البيئات وفى شتى الأزمنة والعصور ،قوامه الكرامة الإنسانية أوّلا واتساع النظر والتسامح ثانياً، فالكرامة الإنسانية دعامة السلوك الإنسانى، واتساع النظر والتسامح تسليم بأن الإنسان لا تحكمه العصمة كما يحكمه الضمير فالنفس البشرية أمّارة بالسوء وفضيلة الإنسان فى قهر ما يسىء به إلى نفسه وما يسىء به إلى الآخرين وأمرها متروك إلى ضميره فما كان من النوايا فعلمه عند علام الغيوب وما كان من أعماله فظاهرة يعلمها الله ويعلمها الناس، وقد يكون من الأعمال ما لايدريه غير الله إذ يتخفى الإنسان أو تواتيه الظروف بالتخفى ولكن تبقى عين الله ترقبه .

وحرية الضمير فى الإسلام ألّا يرى الإنسان إلّا ما يؤمن به ولا يقول إلّا ما يعتقد أنه الحق فلا مداجاة ولا نفاق فى الإسلام وما من إنسان إلّا ويحمل وزر نفسه، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وكان المسلم على عهد النبى وعلى عهد خلفائه الراشدين لا يرى حرجاً أو عنتاً فى مصارحة أولى الأمر أو مساءلتهم مما رواه التاريخ وسجله المؤرخون فى هذا الصدد.

وأما حرية الإنسان فليس عليها من حدود أو قيود إلا ما نهت عنه الشريعة مما يضر بالنفس أو المال أو يفسد حال الجماعة الإنسانية، وليست الشريعة تعاليم غيبية يجمد أمامها أو يقصر دون إدراكها الفكر فهى توائم بين حرية الإرادة وحرية العقل، ومشيئة الإنسان فيها وليدة العقل والإدراك، وفيها ما يحض على التفكير ويدعو إليه، وما ضرب الله الأمثال للناس إلّا ليدعوهم إلى التفكير، وما يبين لهم الآيات إلّا ليتأملوا ويتفكروا، ففى قوله تعالى: (يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) ومنه (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) و(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) و(تلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ومن عبارات القرآن :أفلا يعقلون؟ أفلا يتفكرون؟ أفلا يتدبرون؟ أفلا يبصرون أليس منكم رجل رشيد؟ أفلاتتذكرون؟ ما يطلق حرية التفكير والتأمل، فلا حرية للإنسان بدون حرية للتفكير، فحرية التفكير قرين حرية الرأى، فإذا قال تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ) فإنه جلّ شأنه يردفها بقوله تعالى: (ولا تنس نصيبك من الدنيا) فللإنسان

من حرية الرأى فى الإسلام ما تطيب به حياته وحياة الآخرين فى حرية لا يردّها أى عائق إلّا ما يشين الخلق ويسىء إلى النفس والمال ويضر بالآخرين. ولا نجد دستوراً من الدساتير الحديثة على السواء قد نظم هذه الحرية كما نظمتها الشريعة الإسلامية فلم تضع عليها من القيود ما يشلّها أو يقف دونها إلّا ما نهى عنه الإسلام من منكر أو فساد وهى حرية ترمى فى النهاية إلى توقير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية .